أنا مرارة واتفقعت

ناضلت من أجل التعليم وحولني طالبان للتحقيق

أبلة عطيات

بالاشتراك مع ع. ع. محمد

أبلة عطيات

(بالاشتراك مع ع. ع. محمد)

أنا مرارة

واتفقعِت

أبلة عطيات

أنا مرارة واتفقعت

الكتاب

أنا مرارة واتفقعت

تأليف

أبلة عطيات

(بالاشتراك مع ع. ع. محمد)

الإصدار

الأول، 2021

عدد الصفحات: 29

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

نشر إليكتروني

صفحة الفيسبوك: صفحة ع. ع. محمد

للتواصل: مراسلة

إلى كل المعلمات في الوطن العربي.

مهما حدث، أرجوكِ، لا تنسي هدفك.

تمهيد

النهاية

عندما تقضي وقتا طويلا في مكان ما ستشعر كأنه صار بيتك، بل حتى أكثر؛ لقد تنقلت بين عدة منازل طوال العشرين عاما الماضية، لكن هذه المدرسة لم أفارقها تقريبا منذ عبرت بوابتها الحديدية الصدئة للمرة الأولى ... في الحقيقة لم تكن البوابة كذلك منذ أربعين عاما؛ كانت جديدة ولامعة، والرسومات على السور الأبيض كانت واضحة المعالم، ولا يغطيها السباب. كيف يجرؤون على كتابة هكذا كلمات على حائط مدرسة؟ لماذا لا يقدسون المكان الذي تعلموا فيه؟

ألقيت نظرة أخيرة على الفناء الرملي الواسع، وعبارات الترحيب المكتوبة على حائط المدخل، ثم أدرت ظهري وغادرت المدرسة للمرة الأخيرة.

لم أكد أتحرك بضع خطوات حتى استوقفني شاب وفتاة؛ كانوا في مثل عُمر (آية) و(تامر). سأل الشاب:

– "أبلة عطيات؟"

لابد أنه أنهى دراسته المدرسية منذ أكثر من عشرة أعوام، فمنذ هذا الوقت تقريبا بدؤوا بمناداتي "ميس عطيات"؛ لم أسمع "أبلة عطيات" منذ وقت طويل.

هززت رأسي، وقلت:

– "نعم، إنه أنا!"

– "لقد كنت في فصل رابعة رابع منذ خمسة عشر عاما!"

هل يعتقد أنني سأحفظ كل طلاب الفصول الذين درَّستُهُم! أتمنى ألا تكون هناك مشكلة جديدة، فقد عانيت بما يكفي ... لا أصدق! هل حقا مر أربعون عاما منذ حصلت على (دبلوم المعلومات)؟

كنت قد تزوجت حديثا، وتم تعييني كمعلمة لغة عربية لصفوف المرحلة الابتدائية. شعرت حينها أنني أكاد أطير من فرط السعادة؛ لقد تحقق

حلمي الذي سعيت إليه منذ كنت طفلة صغيرة، حين كنت أرص الدمى في صفوف، وأشرح لهم. كان الجميع يضحكون من لثغتي عندما أتكلم، فلا ينتبهون لما أقول، حتى لو كان أمرا هاما، لكن الدمى لم تكن تضحك؛ كانوا متفهمين، ويستمعون بأدب، وكنت دائما أتخيل أنهم يصفقون لي، ويقولون: "شكرا لكِ على تعليمنا". لا زلت أذكر ردة فعل أمي – رحمها الله – حين أخبرتها أنني سأواصل تعليمي، ولن أكتفي بالشهادة الإعدادية؛ قالت:

– "جاتك خيبة! تدريس إيه، وهباب إيه! ألم تملي من المدارس؟ تعلمي الطبخ أو الخياطة حتى يرضى بك العرسان!"

أما أبي – رحمه الله – فقد كان يرغب أن أصبح ممرضة، لأساعد ضحايا الحرب، ونصحني بهذا في آخر مرة أراه فيها ... قبل أن يبلُغنا خبر استشهاده في إحدى الغارات الاسرائيلية على الحدود.

بقيت مع أمي، ننفق من الراتب البسيط الذي تقدمه لنا الدولة. ألحت عليَّ عدة مرات حتى أتخلى عن سعيي للدبلوم، وأمكث في البيت لتأتِ لي بعريس غني، لكن كان لدي هدف بعيد، ولا أحد سيثنيني عنه؛

عندما أقف بين أبنائي الطلاب، أرشدهم إلى الصواب، وأبين لهم الخطأ، حينها سأكون قد حققت حلمي.

للأسف، عندما تخرجت تم تعييني في مدرسة بعيدة عن المنزل، وبعد الزواج كان زوجي يعترض على نزولي كل يوم مع أذان الفجر، خاصة أنها منطقة حديثة ولم يكثر بها السكان بعد. كثرت المشكلات بيننا لهذا السبب ولاعتراضه على عملي بالأساس. بعد عامين تم افتتاح مدرسة جديدة في مكان قريب، فأسرعت بالتقدم بطلب في الإدارة التعليمية لنقلي. ولمدة عام كامل كنت أغادر عملي، وأتوجه للإدارة التعليمية في الجانب الآخر من المحافظة لمتابعة الطلب. أشعر أن رأسي لا يزال يؤلمني، كلما تذكرت الشمس الحارقة التي كانت تلفحني وأنا أركض في الشوارع حتى أصل للإدارة قبل أن يغادر الموظفون. ازدادت المشكلات في شهر رمضان، فقد قصرت ساعات العمل وكان علي أن أبادل حصتي الأخيرة مع زميل آخر، حتى أتمكن من الحصول على إذنٍ ومغادرة المدرسة مبكرة، لأدرك موظفي الإدارة. لم يكن بإمكاني التخلي عن متابعة الطلب حتى في شهر رمضان، لأنني كنت أحتاج لنقلي إلى المدرسة

القريبة في أسرع وقت، فربما يتم النقل قبل نهاية الشهر، فأتمكن من استغلال الوقت في إعداد الإفطار في موعده، فقد تأخرت مرة واحدة عن إعداد الإفطار، فثارت ثائرته، وهاج وماج في البيت، وضربني؛ كانت المرة الأولى التي يضربني فيها ... لكنها لم تكن الأخيرة.

وبعد عام دراسي طويل تمت الموافقة على نقلي. فوجئت هناك بزميلة كانت معي في المدرسة القديمة وغادرت منذ عدة أشهر، فسألتها وأنا مندهشة؛ كيف تم قبول طلبها بسهولة؟! وفي هذا اليوم أدركت أن الأمر لم يكن يتطلب أكثر من بعض الساندويتشات، وعلب العصير، والهدايا الرخيصة للموظفين، ليسير كل شيء بسهولة ويسر.

مع بداية العام الدراسي الجديد بدأت حالة أمي الصحية بالتدهور، ولم يكن هناك غيري ليرعاها، لكن هذا لم يعجب زوجي، واستمرت المشكلات بيننا طوال العام. ومع بداية الترم الثاني بدأت أشعر بالغثيان، وتكرر الأمر كثيرا، فاضطررت للذهاب لطبيب التأمين الصحي. كتب لي عدة أدوية لتقوية المناعة، ومنع الصداع، وضيق التنفس. لكن لم يتغير

شيء، وبقيت على نفس الحال. وعندما تقيأت في الفصل أمام الطلبة، أخبرتني إحدى زميلاتي أن هذا ما حدث لها حين كانت حبلى.

توجهت من فوري إلى عيادة النساء والتوليد القريبة من البيت، فأكد لي الطبيب الأمر؛ كنت حاملا، وفي شهري الثالث. طلب مني أن أزوره كل أسبوع ليتأكد من استقرار وضع الجنين، وعدم تأثره بالأدوية الخاطئة، التي وصفها لي طبيب التأمين الصحي.

هدأت الأمور نسبيا بيني وبين زوجي، وبدأت حالة أمي بالاستقرار. تحاملت على نفسي حتى فترة الامتحان قبل أن أطلب إجازة وضع، فقد كنت في أشد الحاجة لنقود مكافأة مراقبة الامتحانات، لدفع مصاريف المشفى، والمتابعة مع الطبيب.

عدت للعمل من جديد، بعد الولادة بعام كامل. لم يتغير الكثير في المدرسة. لكن تم تكليف ناظر جديد، ومنذ رأيته أول مرة شعرت من نظراته أنه رجل سيء السلوك، وليس محلا للثقة. تأكدت ظنوني عندما لاحظت تجسسه عليَّ، بينما أرضع ابني الصغير في حجرة فصل خالية.

ولم يتوقف عند هذا الحد بل تمادى بالتحرش اللفظي بين الحين والآخر، وتعمد الإشارة لجسدي أثناء كلامه معي، لكنني تحملت، ولم أخبر أحدا بذلك، خوفا من الفضيحة في مكان العمل.

عندما أتم (تامر) عامه الثالث، كنت حبلى من جديد. تمنيت بشدة أن تكون فتاة، لتكون لي عونا في كل شيء. لكن زوجي لم يكن يرغب بهذا الحَمل منذ البداية، مما أدى لتفاقم المشكلات بيننا طوال مدة الحمل. كنت أشعر بآلام الحمل مضاعفة مع كل تلك المشكلات. وما زاد الطين بلة هو مرض أمي الذي اشتد من جديد. شعر زوجي أنني أُثقل عليه بطلباتي، وأخبرني أنه لن يتحمل المزيد. وفي النهاية أطلعني على قراره بالطلاق مباشرة بعد الولادة. أدركت لاحقا أنه كان قد قرر هذا الأمر منذ فترة طويلة، لكنه تردد لأن الشقة ستصبح لي بصفتي حاضنة ... لهذا لم يكن يرغب في الحَمل الثاني.

بمجرد عودتي للمنزل من مستشفى الولادة، تركني وحيدة وغادر. حزنت أمي كثيرا عندما علمت بذلك، وأصرت أن تأتي بنفسها لخدمتي، رغم مرضها.

بعد أربعة أشهر، عدت من جديد للعمل؛ كنت في أشد الحاجة للراتب، لأنفق على البيت ... فقد كنت أنا العائل الوحيد، ولم أسمع عن طليقي شيئا حتى دخل (تامر) الجامعة.

كان الناظر سيء الخلق قد انتقل للعمل بالإدارة التعليمية، لكن مع انتشار خبر طلاقي، بدأت أرى في أعين زملائي من الرجال نظرات لم أعهدها من قبل. لم أعد أشعر بالأمان إلا داخل حجرة الفصل مع أبنائي وبناتي، الذين لا يعرفون شيئا عما يدور بالخارج. حاولت ألا أنسى هدفي من كل ذلك؛ تعليم الأطفال وتأديبهم وإرشادهم.

مع بداية العام الجديد بدأت الدروس الخصوصية بالانتشار، وعرض علي الكثير من أولياء الأمور تدريس أبنائهم، لكنني كنت أرشح لهم زملاء آخرين، فلم يكن بإمكاني ارتياد المنازل وتعليم أبناء الناس، وأبنائي لا يجدون من يعد لهم طعاما أو يجالسهم. فكرت كثيرا في الأمر، خصوصا مع دخول أمي المشفى وتدهور حالتها الصحية، لكن أدركت أنها تحتاج لبقائي بجانبها أكثر من المال، فلجأت لتكوين الجمعيات من الراتب الضئيل، لأتمكن من تسديد مصاريف المشفى والإنفاق على المنزل.

أذكر في تلك الفترة أنني قبضت الجمعية في إحدى الشهور، وتبقى مبلغ قليل لم يُنفق، وكنت بحاجة لملابس جديدة، فاشتريت فستانا من الحرير باللون القرنفلي، للذهاب إلى زفاف ابنة إحدى الزميلات. حضرت به إلى المدرسة في هذا اليوم لأشاهد رد فعل الزملاء، على ذوقي في الملابس – كنت لا أزال في الثلاثين من عمري، وأهتم لرأي الناس فيَّ. في الحصة الرابعة، استدرت مستقبلة السبورة وبدأت الكتابة، ولحظي التعس قذف أحد الأولاد بكيس عصير ممتلئ. أصاب ظهري تماما. اعتذر كثيرا، وسط ضحك الأطفال، وأخبرني أنه كان يقصد إلقائه في سلة القمامة بجوار الباب، لكنه أخطأ. لم أتمكن من الذهاب لحفل الزفاف في تلك الليلة، ولم تفلح أي وسيلة في تنظيف الفستان الحريري فانتهى أمره للأبد.

في الشهر التالي استدنت من بعض الزميلات مبلغا ليس بقليل، لأن أمي احتاجت لعملية عاجلة، ربما تنجح وربما يحدث أسوأ شيء على الإطلاق.

في ذلك الوقت، ومع انتشار الدروس الخصوصية، أصبح الطلبة أقل اهتماما بالحصص المدرسية، وأقل تأدبا مع معلمي الفصل. في نهاية الفصل الدراسي، وتحديدا في الأسبوع الأخير، كان الفصل يشبه الغابة؛ الأولاد يقذفون بعضهم بالزجاجات الفارغة، والكراسات، ويقطعون الكتب. هدؤوا قليلا عندما دخلتُ، لكنهم استمروا في تراشق الزجاجات البلاستيكية الفارغة فيما بينهم من خلف ظهري. لم أكن أشعر بما حولي في هذا اليوم، وقد اقترحت علي بعض الزميلات أن آخذ أسبوعا إجازة، لكنني كنت قد استنفذت أيام الغياب العارضة، ولم أرغب في أخذ أيام تخصم من راتبي، فلا ذنب لأبنائي، لأُقَصِّرَ معهم.

جلست على المكتب بجوار النافذة، وتركتهم يجيبون الأسئلة على السبورة في كراساتهم، لكنهم لم يكونوا مهتمين. أسندت رأسي إلى المكتب، وأخذت أبكي، وأنا أكاد لا أسمع شيئا مما يحدث حولي. فوجئت بالباب يفتح، والموجه العام يدخل الفصل. نظر إلى تلميذ يقف فوق مقعده، وإلى الأرض المغطاة بالأوراق المقطعة، ثم التفت إليَّ، وقال:

– "حاولي النوم في بيتك والانتباه للفصل، يا ... أستاذة!"

ثم أغلق الباب، وخرج. عاد الأولاد من جديد للقفز، والتراشق. أمسكت عصا الخيزران من على المكتب، ولم أشعر بنفسي، إلا وأنا أنهال عليهم ضربا. كنت أصرخ من الغيظ، وعيناي تدمعان. صرخ أحدهم بشدة؛ يبدو أن الخيزرانة أصابت وجهه. فُتح الباب على إثر صوت الصراخ، ودخل الموجه من جديد، ومن خلفه الناظر، ورأوا ما يحدث. تدخل أحد الزملاء محاولا إنقاذ الموقف. سمعته يهمس في أذن الموجه العام:

— "لقد ماتت أمها منذ يومين!"

لم يشفع لي موت أمي، وتم تحويلي إلى الشؤون القانونية للتحقيق معي.

لم تكن الأمور كلها سيئة في مشواري؛ في هذا الوقت بدأ التلاميذ بتقديم هدايا لمعلميهم، بمناسبة عيد الأم. شعرت بسعادة غامرة عندما قدمت لي إحدى التلميذات علبة ثقيلة، مغلفة بورق لامع.

كانت كل معلمة في المدرسة ترمق الهدية في يدي بحقد، وحتى الجيران أخذوا يتهامسون. فتحت الهدية فور دخولي المنزل؛ كانت عبارة عن

طاقم أكواب ستة قطع، لكن الأكواب كانت كلها متصدعة ومكسورة؛ يبدو أنها لم تتحمل حرارة الطريق فانفلقت.

دخل (تامر) إلى المدرسة. لم أكن أُدَرِّس الصف الأول في هذا العام، فلم يكن في صفي. وبدأت أفكر من جديد في أمر الدروس الخصوصية، لكنني كنت بالكاد أنهي اليوم، وأسرع ومعي (تامر) لنحضر (آية) من الحضانة، قبل موعد الإغلاق.

تمنيت كثيرا أن أذهب للمصيف، لكن لم يكن الدخل يكفي ذلك بأي حال، فأخبرني أحد الزملاء أن بإمكاني عمل اشتراك سنوي في (نادي المعلمين) مقابل مبلغ رمزي بسيط، ويمكنني بعدها الذهاب لهناك وقتما أريد.

أنهيت إجراءات استخراج الاشتراك من النقابة سريعا – بمساعدة الساندويتشات، والهدايا طبعا – واصطحبت (تامر) و(آية) إلى هناك، دون أن أخبرهم بوجهتنا. لن أنسى يوما التعبير على وجهيهما حين جلسنا إلى الطاولة بالقرب من السور والنيل أمامنا مباشرة؛ كادوا يطيرون

فرحا بالمفاجأة. أخرجت كل ما في حافظتي من نقود، واشتريت غداء لفردين، وأكلنا على النيل ... كالأثرياء.

ألح الولدان عليَّ كثيرا بعدها لنكرر الأمر، لكن لم يكن معي ما يكفي من النقود لشراء الغداء والعصير كالمرة السابقة، فأخذت أؤكد لهم أننا سنذهب من جديد في أقرب فرصة، حتى نسوا الأمر.

عندما دخلت (آية) المدرسة، ووصل (تامر) إلى الصف الخامس، قررت أن أبدأ بالدروس الخصوصية. استخرجت لـ(تامر) نسخة من مفاتيح المنزل، وطلبت منه أن يصطحب أخته بعد المدرسة، لأنني سأذهب للعمل. كانت المشاكل بينهما كثيرة ودائما يتشاجران، حتى أن الجيران اشتكوا من أصوات الصياح والصراخ التي تصدر من المنزل في تلك الأيام التي أكون فيها خارجا. وذات صباح سمعت أحد الجيران على السلم يحدث جارا آخر بأن تلك الأم التي تترك أبناءها لابد وأن تكون أمًا مهملة. لاحظ أني أمر بالقرب منهما، فرمقني بشذر وتوقف عن الكلام.

قررت اصطحاب (آية) معي للبيوت التي أُدَرِّس بها، لكن كثيرا من أولياء الأمور رفضوا هذا الأمر، وقرروا اللجوء لمدرسين آخرين، مستغنين بذلك عن خدماتي.

بعد ذلك بسنوات – وكنت في الأربعين من عمري – بدأت ألاحظ نظرات الاستعلاء من معلمات المراحل الاعدادية في المدرسة، لأنهن حاصلات على (ليسانس)، أما نحن فمجرد دبلوميات – على حد قولهنَّ. كانت الأولوية لهن في كل شيء؛ في الإشراف والتوجيه وكونترول التصحيح. قالت إحداهن ذات مرة، عندما تم تعييني في الكونترول، بحكم خبرتي:

– "هل سيتمكن الحاصلون على الدبلوم من تصحيح امتحانات المراحل الإعدادية؟"

حتى التلاميذ، دوما ما ينسون معلميهم من المرحلة الابتدائية؛ كانت الزيارات من الطلبة وأولياء الأمور القدامى دوما لمعلمي الصفوف الإعدادية، كأنه لا يوجد غيرهم. كيف ينسى الإنسان من علمه ما لا غنى عنه؛ القراءة والكتابة والحساب؟ هذا ما لن أفهمه!

صدر قرار بمنع الضرب في المدارس. ويبدو أن الآباء لم يدخروا جهدا لإخبار أبنائهم أن من حقهم فعل ما يريدون داخل المدرسة دون خوف من العقاب. لم يتغير الأمر مباشرة، فقد استمر خوف التلاميذ من العقاب لفترة وجيزة حتى أدركوا أن الأمر حقيقي وأنه لم يعد لهم من رادع، فأصبحوا أكثر سوءً من ذي قبل، فكما قال أحدهم ذات مرة: "من أمِنَ العقاب، أساء الأدب". وفي خلال فصل دراسي واحد عدنا من جديد لاستخدام الضرب، ولكن تلك المرة سرا؛ في وقت التفتيش على المدارس كنا نخبئ العصي، وقطع الجلد، والخيزرانات. أنا فعلا أكره الضرب، وأكره أن أوذي أحدا، لكن لابد من وسيلة للردع حتى يتأدب الصغير. كنت أتمنى لو كانت وسيلة الردع هي احترامهم لمعلميهم، أو من هم أكبر منهم سنا؛ أو خوفهم من آبائهم، وأمهاتهم، لكن للأسف كان أغلب الآباء والأمهات لا يحسنون التربية ... ولا يزالون.

كانت الكلمة التي تتكرر أكثر من غيرها في فترة سابقة، على ألسنة أولياء الأمور هي "اكسري يا أبلة، ونحن نَجبُر ... المهم أن يتعلموا!". لم أكسر تلميذا من قبل، لكن كنت أحرص على أن يسمعوا هذا الكلام،

حتى يرتدعوا. بالطبع لم يتوان الإعلام عن تصوير المعلم الذي يحمل عصا كشخص شرير أو وحش كاسر، كذلك فعلوا مع الدروس الخصوصية، وكل ما يخص المعلم؛ كل شيء إلا الراتب؛ لم يجرؤ إعلامي على ذكر معاناة المعلم مع راتبه الضئيل أو مع سوء خلق الأجيال الصغيرة أو يناقش المسؤولين الحكوميين في ظروف عمل المعلمين؛ فقط تهجَّموا علينا، وذلك ببساطة لأن المعلم لا يمكنه إيقاف البرنامج وقطع راتب الإعلامي الباهظ بمكالمة هاتفية قصيرة.

ساءت الأمور مع الوقت، واللوم لا يقع في ذلك على أولياء الأمور وحدهم، بل على بعض المعلمين أيضا؛ ترددت الأنباء عن معلمات يتسببن لطلبة بكسور أو عاهات مستديمة نتيجة العنف داخل الفصول، فزرع ذلك خوفا داخل الآباء والأمهات الجدد على أبنائهم، خاصة من كان منهم يتعرض للضرب في صغره. ومع الوقت تبدلت "اكسر ونحن نجبر" إلى "إذا لمست شعرة من ابني سأفصلك من عملك". بالطبع تلك الجرأة على المعلم كانت نتاج الكم الهائل من الأفلام والمسلسلات، التي صورت – ولا تزال – المعلم بمظهر المهرج، وكذلك الأخبار التي فضحت

ضعف المعلم، وقلة حيلته، فانتقلت جرأة الآباء إلى الأبناء مع الوقت؛ سمعنا عن طالب في المرحلة الثانوية يرفع مطواة في وجه معلمه، وأخريات في المرحلة الإعدادية يتربصن لمعلمتهن ليلا، ويضربنها على الطريق. حتى أنا شخصيا لم أسلم من الأمر ... آه! لطالما أردت عالما مثاليا، ربما هي سذاجة أو خفة عقل، لكن هذه كانت دوما أمنيتي؛ مجتمع مثالي. والمجتمع المثالي لا يبنى إلا بلبنة مثالية؛ طالب مثالي. والطالب المثالي لا يغش في الامتحان، ولا يتهرب من الحصص، أو يرافق أصدقاء السوء. يبدو كلاما كالمكتوب في كتاب اللغة العربية؛ ربما هو كذلك، لكنه الحقيقية.

أشد ما كنت أعاني، كان في وقت مراقبة الامتحانات؛ يبدو أن الطلبة، وأولياء الأمور، والمعلمين، والإدارة اتفقوا جميعا على أن الغش داخل لجان الامتحان أمرٌ طبيعيٌ ومُسَلَّمٌ به. لكن كما قلت؛ عقلي الساذج يحلم بمجتمع مثالي لا غش فيه، وهذا ما علمته لابنيَّ، وحاولت ترسيخه في عقول تلاميذي، واعتدت تطبيقه في مراقبتي للامتحانات، إلا أنني لم أكن قد أدركت بعد أن المعلم أصبح الجانب الضعيف؛ الذي يطأه كل

من في المجتمع. منذ عشر سنوات كنت في إحدى لجان المرحلة الإعدادية، وبالطبع لم أكن أعتمد – في مراقبة اللجنة – على زميلتي التي أسندت رأسها إلى المكتب وغطت في النوم، فكنت وحدي، وكانت تلك المدرسة في إحدى المناطق الشعبية، التي لا توليها الوزارة أدنى اهتمام، ويبدو أنهم اعتادوا الغش؛ بعد توزيع أوراق الامتحان أخذوا يتلفتون يمينا ويسارا، حتى أن بعضهم وقف في مكانه يطالع ورقة زميله، وهو يبتسم، فصرخت فيهم، وأوضحت لهم الأمر قائلة:

– "أي شخص يتحرك من مكانه، أو يلتفت سأكتب فيه محضرا للغش!"

سكتوا، وعاد الهدوء لقاعة الامتحان. ابتسم طالب في الخلف – ذكَّرني بابني حين كان في مثل عمره – حين قلت ذلك، ورفع إبهامه مشجعا؛ كان مسرورا أنه لن يتساوى المجتهد مع من حضروا الامتحان معتمدين على الغش. قبل نهاية الوقت بدأ التهامس بينهم، وتبادل الأدوات بدافع الغش طبعا، ورغم كرهي لذلك إلا أنني ادعيت عدم الانتباه، وتركتهم؛ لا أرغب في أن يرسب أحد.

تمادي بعضهم، فصرخت فيه ليجلس في مكانه، إلا أنه لم يفعل؛ ظل واقفا بجوار مكتب زميله ينقل الإجابات في ورقته، فسحبتها منه وأمرته بالجلوس في مكانه. لكنه صاح في وجهي مهددا، وخرج من لجنة الامتحان بعد أن صفق الباب بحدة. كنت في الخمسين من عمري، أي أنني أكبر سنا من والديه. لم يكن مني إلا أن قمت بالإجراء القانوني؛ أخرجت قلمي، وكتبت كل ما قام به.

بعد أسبوع من تلك الحادثة، وكانت الامتحانات قد انتهت، وردني اتصال هاتفي ليلا. سأل المتصل بفظاظة:

– "أنت عطيات؟"

– "نعم، من المتصل؟"

كان المتصل هو والد هذا الطالب؛ هددني بأنه سيبعث إلى بمن يضربني، ويجردني من ملابسي في وسط الطريق. لم أتمكن من النوم في تلك الليلة. لم أطلع (تامر) و(آية) على الأمر، لكن طلبت منهم أن ينتبهوا في طريقهم للجامعة. أسررت بالأمر إلى إحدى الزميلات، فزادت

من قلقي حين أخبرتني أن تلك المنطقة – التي كنت أراقب بها – تعتبر سوقا للمخدرات، وقد يكون هذا الرجل أحد التجار. انتشر الأمر في المدرسة، فتهكم عليه من تهكم، واهتم من اهتم. الحمد لله لم يقع شيء! لكنني حرصت – من بعدها – على عدم المشي في أي شوارع مظلمة أو جانبية.

لم تزدد جرأة أولياء الأمور والطلبة فقط، بل ساعدتهم الحكومة في ذلك بقراراتها؛ تم تجريم الدروس الخصوصية، وصدرت الأوامر بإغلاق مراكز التدريس تماما. لكن كان السواد الأعظم منا يعتمد على هذا المصدر للربح؛ كيف سأدفع مصاريف الجامعة، وأجهز ابنتي للزواج؟ إذا اعتمدت على الراتب وحده سيستغرق الأمر خمس سنوات ... بالسجن، لأنه لم يكن حتى ليكفي دفع الإيجار وشراء مستلزمات المنزل الأساسية. بدأنا بتدريس الدروس الخصوصية سرا؛ أحيانا في المنازل، ومعظم الوقت في تلك المراكز التي فتحت أبوابها الخلفية. بالطبع سرت الهمهمات والاستهزاء بين التلاميذ، فمعلموهم أصبحوا خارجين على القانون.

كانت تصل إلى أسماعنا أخبارا عن معلمين يُغرَّمون مبالغ كبيرة عندما يتم القبض عليهم متلبسين بالتدريس، وآخرين يُوقَفُونَ تماما عن العمل. لكن لم يكن باليد حيلة ... لا مصدر آخر للدخل. بدأت تراودني في تلك الفترة أفكار وهواجس غريبة، وكنت أحاول دوما طردها، لكنها لا تنفك تعود؛ ماذا لو سمعت كلام أمي وتركت التعليم وتزوجت؟ ماذا لو كنت اخترت هدفا أبسط في الحياة، بدلا من تغيير المجتمع، وتنشئة جيل واع؟ ماذا لو كنت استمعت لزوجي السابق – رحمه الله – وتركت العمل؟ هل كان الوضع سيختلف ولن يتركني ويتزوج بغيري؟ هل ما نحن فيه اختبار من الله، لأننا اخترنا الطريق الصحيح، أم أنه عقاب أو علامة لأننا أسأنا الاختيار؟!

لا أعرف من قام بتقديم البلاغ؛ ربما هو ولي أمر ناقم لأن أحد المعلمين لمس شعرة من ابنه، أو زميل ناقم لأن أحدنا يُدَرِّس تلميذٍ من فصله! لا أعرف من ... فقط أعرف أنه في الثامنة مساء، داهم رجليَّ شرطة المركز المفتوح سرا. سمعتهما يتحدثان مع زميلي في القاعة المجاورة بأسلوب مهين، كأنهم أمسكوا به يتاجر بالمخدرات – كوالد الطالب الذي

هددني. ركض الأولاد خوفا، فتركت أدواتي على الطاولة وانطلقت من الباب الخلفي؛ لم يكن معي ما يكفي لأدفع الغرامة، فقد دفعت ما كان معي مقدما لشقة ابني. كنت أركض في الشارع المظلم، على الأرض الموحلة بفعل المطر وأنا أتلفت خلفي خوفا من أن يكتشف الشرطيان أمري، أو يصورني أحدهم وأنا أهرب. تعثرت في العباءة التي أرتديها، ووقعت على وجهي في الطين. عمري قد تجاوز الخمسين بعدة سنوات، وأنا مطاردة لأني أقوم بالتدريس؟! وهنا عادت الهواجس من جديد، وبشدة؛ ماذا لو كنت اخترت طريقا آخر؟!

كنا نجلس في البقعة الوحيدة التي بها ظل في المدرسة، بعيدا عن شمس الصيف الحارقة؛ ندردش معا ونضحك؛ هذا الوقت من العام هو الأفضل، رغم أنه لا يوجد دروس في الصيف، لكن على الأقل تكون المدرسة خالية من الطلبة، كما أنهم يمنحوننا شهرا كاملا كإجازة ... ما الذي قد أطلبه بعد ذلك!

أتت إحدى زميلاتي على ذكر أول عام لها في المدرسة، وانطلق الجميع يتحدثون، فتذكرت أول صف أُدَرِّسُه وسرحت بذهني بعيدا؛ أين هم

هؤلاء الطلاب الآن؟ لابد أن أعمارهم قد جاوزت الأربعين ... هل يذكرون شيئا مما أخبرتهم به؟ لم يكن عامي الأول هو الأفضل، بحكم انعدام الخبرة بالطبع، لكنني كنت متحمسة جدا لتعليمهم كل شيء؛ أهمية الدين في تعاملاتنا اليومية، والأخلاق الحميدة، والنوايا الحسنة، و ... أتمنى ألا ينسوا!

– "وأنت يا أستاذة عطيات؟"

– "ماذا؟ آسفة، لم أسمع!"

– "منذ متى وأنت في المدرسة؟"

– "لقد بدأت في مدرسة أخرى، وانتقلت إلى هنا بعد زواجي ... بدأت العمل منذ أر ... أربعين عاما تقريبا!"

هل هذا صحيح؟ هل مرت أربعون سنة؟!

– "إذا فأنت على وشك الانتهاء!"

– "الانتهاء من ماذا؟"

ضحكوا جميعا، ثم قالت أصغرهن:

– "المعاش ... على وشك الخروج على المعاش!"

– "غير صحيح، لا يزال أمامي ... أنا ... عام؛ العام القادم!"

– "يا بختك! بنهاية العام القادم سترتاحين من وجع الدماغ!"

نعم، سأرتاح ... إنها محقة؛ سأرتاح من الصداع المستديم، وتقلصات عضلة القلب الناتجة عن بذل الجهد؛ لا مزيد من الشد والجذب مع أولياء الأمور، والمشكلات التي لا تنتهي مع الإدارة، لا مزيد من الاستيقاظ مبكرا كل يوم، ولا مزيد من ... من الصغار الذي لا يجدون من يرشدهم، أو يعلمهم ... لا مزيد!

لماذا تدمع عيناي؟

في اليوم المحدد توجهت إلى مكتب المدير. صافحني بعض الزملاء القدامى، وطلب بعضهم رقم هاتفي، ووعدوني جميعا أنهم سيتصلون بي، ولن ينسوني. ابتسم المدير الشاب، ومد يده مصافحا، ثم سلمني ورقة ظننتها في البداية غلاف كراسة لواحد من التلاميذ المهملين. ارتديت

نظارتي وقرأت ما كتب عليها؛ شهادة شكر من الإدارة التعليمية إلى "ميس/ عتيات".

- "عتيات؟!"

في أسفل الورقة مكتوب أنه تم تحويل المعلم للشؤون القانونية مرتين خلال فترة عمله، وطبقا لتقارير الإدارة التعليمية، فالتقييم النهائي هو ستة من عشرة!

طويت الورقة برفق، ثم خرجت عبر بوابة المدرسة للمرة الأخيرة.

عدت إلى الواقع من جديد، وحملقت في الاثنين الواقفين أمامي. قلت:

- "أهلا يا حبيبي!"

- "ألا تذكرينني؟ أنا نوفل عبد السلام!"

- "إنه اسم مميز، لكنه حكم السن!"

ابتسم، وقال:

– "عندما دخلتُ المرحلة الإعدادية رسبت في امتحانات الشهور لشهرين متتاليين، وضربني أبي بشدة، وأخبرني أحد المعلمين أنني فاشل ولا أصلح لشيء ... بدأت بالتدخين، وكنت سأفعل ما هو أسوأ من ذلك، لكنك رأيتني وأنا أمسك بالسيجارة، واندهشتِ من تغير حالي عما كنت عليه في صفك، وسألتني عما ألم بي، فأخبرتك، ولن أنسى أبدا ما قلته لي هذا اليوم؛ إذا كان أحدهم يعتقد أنني فاشل، فهذا لا يعني أنني حقا كذلك ... ربما هي بضع كلمات بسيطة بالنسبة لك، لكنها جعلتني ما أنا عليه اليوم"

أزاحته الفتاة، واحتضنتني، ثم قالت:

– "أنا لم أكن في فصلك، ولم أكن حتى أعرفكِ قبل ما فعلتِ؛ في الصف السادس توفي أبي، وكنت أفتقد شعور الدفء الأبوي، فبدأت أنجذب للفتيان الأكبر سنا، وخدعني فتى في الثانوية واستدرجني خارج سور المدرسة ... لمحتِهِ يمسك بيدي، وكان فتى ضخما لكنكِ صحتِ به ليرحل، ولما لم يفعل ضربتهِ بحقيبة يدك، ثم جذبتني من شعري، وأخبرتِني بكلمات سأعلمها لابنتي عندما

تكبر قليلا؛ الرجل الحقيقي يأتِ من الباب، لا من خلف السور ... لقد آلمتِني بشدة في هذا اليوم، لكنني تعلمت الدرس!"

ابتسمتُ، وسألتها:

– "يعني وجدت رجلا حقيقيا!"

التفتت إلى (نوفل)، وقالت:

– "نوفل هو زوجي، ونحن نعيش مع ابنتنا في الخارج، لكننا في إجازة، واليوم كنا نتذكر أيام المدرسة، فاكتشفنا أن التي غيرت حياتينا كانت هي نفس الشخص، فجئنا لنشكرك، وأيضا ..."

سكتت، فأكمل (نوفل):

– "في الحقيقة نحن نمكث خارج مصر لعدة أشهر وكلانا يعمل، لكننا لا نرغب في تربية ابنتنا بالخارج، فقررنا أن ندخلها المدرسة هنا في مصر، لكن ليس لنا أقارب، ولا نعرف أين نتركها ..."

رفعتُ حاجبيَّ دهشة، فأكمل سريعا:

– "سنترك لك كامل مصاريفها بالطبع، وهي مطيعة لن تتعبك أبدا، لكننا لا يمكن أن نتركها تتربى بالخارج!"

أسرعت الفتاة إلى باب سيارة قريبة، فتحته وسحبت بنتا صغيرة لها نفس الملامح. دفعتها برفق، وهي تقول:

– "سلمي على ميس عطيات!"

مدت الصغيرة يدها في خجل، فصافحتها. بدأت أشعر بالدموع تنهمر على خدي. قلت بلهجة صارمة:

– "يجب أن تعودا للاطمئنان عليها كل ثلاثة أشهر!"

هزا رأسيهما.

– "وتتصلا بها كل ليلة!"

قالت الأم:

– "أكيد!"

– "وإذا شعرت أنها ستتعبني، ولو قليلا ..."

قاطعني قائلا:

– "سنأتي لاصطحابها فورا!"

– "حسنا، اتركاها معي الليلة، ولنرى!"

ودعاها ثم ركبا السيارة، وانطلقا. التفتُّ إليها، وقلت:

– "هيا بنا، أريدك أن تقابلي ابنتي آية قبل أن تنتقل إلى بيت زوجها"

أشارت إلى شهادة الشكر في يدي، وقالت:

– "ما هذا؟"

قذفت بالورقة البالية إلى صندوق قريب، وقلت:

– "لا شيء؛ إنها قمامة ... ماذا تفعلين؟ اسحبي أصبعك من أنفك، واستخدمي منديلا ..."

ΔΔΔ

دعمك يعني الكثير

صفحة ع. ع. محمد